البعد الثالث

تحدثنا في الأعداد السابقة من المجلة عن أشكال من العلاقات الزوجية التي كان للتطرف الشديد في سمات أحد الزوجين الأثر الأكبر على رسم خطوطها العريضة، وكما نعلم أن تفاعل سمات الزوجين بعضهما البعض هو الذي يحدد شكل العلاقة بينهما، ولا يجب أن يكون كلٌ منهما على درجة عالية من المثالية حتى تستوي الأمور، ولكن الدرجات المتوسطة والمعقولة كافية لأن يتم التوافق وتمضي بهما الحياة في سلاسة وهدوء، لكن في بعض الأحيان يقتحم طرف ثالث تلك العلاقة السوية ويقلبها رأسا على عقب، وهذا ما حدث لهذين الزوجين .

الزوج في العقد الخامس من العمر، زوجته من أسرة طيبة، مرت سنوات عمرهما في هدوء، كوّنا أسرة متماسكة، وحققا سويا الكثير من النجاح على المستوى الاجتماعي والوظيفي والمادي، وأصبحا من الأثرياء، وبدأت القصة المعهودة عندما تقدمت إحدى الفتيات للعمل لدى الزوج في شركته الخاصة، ولم يتردد كثيرا في قبولها دون غيرها كثيرات، فقد كانت ذكية، لماحة، حاضرة البديهة، طموحة، نضرة، أنيقة، وجميلة أيضا، أضافت إليها نظرة الثقة في عينيها جاذبية خاصة، وتم تعيينها بالشركة، ولم يمض وقت طويل حتى عيّنها سكرتيرة خاصة له، ليس لغرض ما وإنما كفاءتها الواضحة في العمل تؤهلها بثقة لهذا المنصب، وكان معجبا بأدائها وسعيدا بوجودها معه، وكثيرا ما كان يمتدح نشاطها وذكاءها وجديتها لزوجته، مع مرور الأيام بدأ الزوج يشعر بمتعة خاصة في العمل، يبدو منشرحا وهو ذاهب إليه، يريد البقاء فيه لمدة أطول، وكذلك الفتاة، كانت سعيدة، راضية، متحمسة، ملازمة له في تحركاته وخطواته، مشاركة له في أفكاره وقراراته، وأخذ شكلا من أشكال الارتباط والاعتمادية يتكون بينهما، كان هناك شيء يولد في أحشائهما، يزحف ببطء، ينمو بتدريج، خافٍ عليهما، يشعرانه، ولكنهما لا يريانه، ولا يعيانه، وبدأت الفتاة تدرك هذا الشيء، وبدأت تعي أنها على درجة من التعلق به، فهو حقا في عمر والدها، وهي لم تكن تتخيل أنها من الممكن أن تتعلق بإنسان في مثل هذا العمر، ولكن بريق المال والمركز حين يمتزجان مع ثقة واتزان في رجل أنيق لا يخلو من الوسامة لها سحرهم الخاص وتأثيرها على فتاة في مقتبل العمر، وبدأت تشعر أنها مدفوعة تجاهه بكثير من العواطف والمشاعر المتضاربة، بين تردد ورغبة وخجل وحنين، محصلتها النهائية أنه أصبح يحتل الحيز الأكبر من تفكيرها إن لم يكن كل تفكيرها. في المقابل بدأ هو يشعر بنفس الشيء، ولكن الأمر بالنسبة له كان أكثر تعقيدا، فهو يحمل على عاتقه تاريخا غير قصير من أسلوب في حياته يتميز بالالتزام واحترام الذات الذي يفرض احترامه على الآخرين، وزوجة محبة، مخلصة، وفية، شاركته رحلة الحياة بحلوها ومرها، تمثل له أعلى قيم الحياة وأغلى ما فيها، كما أصبح هو بالنسبة لها كل الحياة، وأبناء لكلٍ منهم شخصية وكيان مستقل بذاته، اعتادوا أن يروا والدهم في صورة متميزة من الهيبة والاحترام، وأيضا الكمال ..... ولكن على الجانب الآخر، هناك تيار جارف يلفه، يحتويه، يسيطر على تفكيره، فنظراتها الواثقة أحيانا، الحالمة أحيانا أخرى، تخترق كل السدود وتعبر كل العوائق التي يحاول جاهدا أن يضعها أمامها وتغزو قلبه المتعطش للشباب، وصوتها الرقيق يهز كيانه ويدغدغ مشاعره ويزلزل كل الثوابت التي عاش عليها، وجسدها الثري، الفتي، المثير، الذي يدفع بالدماء تتدفق في عروقه حين اقترابها منه أو ملامستها له بشكل عابر، إنها تثير فيه مشاعر كانت خامدة، وتوقظ فيه تلك النوازع التي كانت نائمة منذ أمد بعيد، يا لها من فتاة، إنها كائن غير كل البشر، إنها مزيج من كل ما هو حلو في الحياة .....هي ليست بالضرورة كل هذا، ولكنه كان يراها هكذا، فمعها كان يشعر بنوع من المتعة لم يعهده من قبل، كأنه طفل صغير ساكن في حضن أمه، وأسد في مملكته وعلى عرينه، في آن واحد .

وبدأ الصراع التقليدي بداخله بين العقل والقلب، بين واقعه الروتيني الأقرب إلى الملل، وعاطفته الجارفة تجاه ذلك الكائن الغريب، ولأنه كان دائما ما يغلّب العقل على العاطفة، لم يستطع هذه المرة أن يصل إلى حل، وفضّل أن يهدّئ الصراع بداخله بتأجيل التفكير في هذا الأمر وترك الموضوع برمته للظروف، يسير بتلقائية ويمضي بالاندفاع الذاتي، ولا داعي لاستباق الأحداث وتوقع البلاء قبل حدوثه .....

وهكذا أصبح الطرفان مهيآن للمواجهة والمصارحة، فكل منهما مدفوع للآخر، وبدأت العلاقة تأخذ منحنى آخر، تعبير صريح عن الحب، ثم لقاءات عاطفية رقيقة أحيانا، محمومة أحيانا أخرى، وأخذت العلاقة في التطور حتى وصلت إلى درجة كبيرة من العمق، والثبات، والوضوح أيضا، فقد أصبح من الصعب إخفاؤها ..... وهنا نأتي للطرف الثالث، أو الجانب المأساوي في هذه القصة، وهي الزوجة، إنها إنسانة شديدة البراءة، لم ترتكب خطأ ما، ولم تقصر في شيء، فقد أخلصت لزوجها، وأحبت أولادها وأحسنت تربيتهم، وكانت دائما لزوجها السكن والسند والشريك في كل لحظاته السعيدة، وأيضا في كل ما كان يمر به من محن، أفنت عمرها من أجلهم، فليس لها اهتمامات في حياتها تتعدى حدود زوجها وأولادها، ومنذ البداية كانت تشعر ببعض القلق من كثرة مديح زوجها لسكرتيرته الجديدة، فهي على دراية بزوجها، وتعلم أنه مع ما يبدو عليه من رزانة واتزان، إلا أنه لا يخلو من مواطن الضعف، ولكنها لم تتخيل آنذاك أنها من الممكن أن تمثل تهديدا لحياتها الزوجية، ليس لمعرفتها السابقة بها، ولكن لخبرة السنين مع زوجها، فهي تراه كالعصفور، قد يترك العش للحظات، ولكنه لا يبتعد كثيرا، ودائما يعود إليه، كما أنه بعد كل تلك الأعوام التي عمقت علاقتهما ببعضهما، وزادتها رسوخا وثباتا، أصبحت لا تظن أن هناك شيئا في الوجود من الممكن أن يؤثر في تلك العلاقة، ولكن الأمور سارت على عكس ما كانت تتوقع، فإذا بالثوابت تتزعزع، والجذور تقتلع، والصروح تتهاوى، إن زوجها يتغير يوما بعد يوم، ها هو أصبح أكثر خفة وأقل اتزانا، أشد اهتماما بأناقته وملبسه، يداعبها بكلمات عابرة عند خروجه وعند قدومه على غير عادته، وأصبح دائما خارج المنزل لا تراه إلا نادرا، وحين تطالبه بالبقاء بالمنزل لقضاء بعض الوقت مع الأولاد، يتحجج بكثرة العمل، أو يضطر للبقاء تحت ضغط الإلحاح، ويكون صامتا متململا، وأصبح لا يتحدث معها عن العمل كما كان في السابق، وحين

تسأله عن أخباره في العمل يرد بكلمات مقتضبة أو لا يرد مطلقا، كما أنه أصبح متقلب المزاج، عصبيا أحيانا، سعيدا ومرحا أحيانا أخرى بدون سبب واضح، وبدأت الشكوك تتزايد بداخلها، وبدأ يتضح لها أن حساباتها الأولى كانت خاطئة، وأن هناك خطر حقيقي يهدد حياتها الزوجية، وأن زوجها ينساب من بين يديها.

ومع تزايد الشكوك بداخلها، زادت حيرتها فيما تفعل، هل تواجهه وتصارحه بشكوكها، أم تحاول التأكد المرة تلو الأخرى، وكيف لها أن تتأكد، هل تتابعه من بعد أو تقتحم عليه مقر عمله، أم تؤجر من يراقبه، هل تتنازل عن كبريائها وتذهب إليها، وماذا تفعل، هل تثور عليها وتعنفها لأنها اختلست زوجها منها، أم أن تستجديها أن تتركه ليعود لبيته وأولاده، أم تعرض عليها بعض المال لتتركه، إن الأفكار تتواتر في ذهنها متلاحقة وهي عاجزة عن أن تفعل أيًا منها أو أن تتخذ أي قرار، مما عمق شعورها بالعجز، وأدى بها إلى حالة أقرب إلى الشلل الفكري والمعنوي، فأصبحت شديدة التوتر والعصبية، ما عادت تستطيع النوم، يداها ترتجفان، عيناها باكيتان، حلقها يابس، يلازمها صداع مستمر، دائمة البقاء في غرفتها، مستلقية على فراشها، لا تريد التحدث مع أحد، أفكارها تتتابع في دائرة مغلقة، تعتصرها الكثير من المشاعر المتناقضة تجاه زوجها، بين حب وتعلق شديدين، وإحباط حاد ويأس يصل بها إلى حد المقت والكراهية، ومع كل هذا لم تصارحه بما يجول في خاطرها، وحاولت جاهدة أن تخفي مشاعرها عنه، فهي مازالت لا تملك الدليل الذي يؤكد ظنونها، كما أن هذه طبيعتها، تحتفظ بمعاناتها لنفسها ولا تظهرها للآخرين، حتى جاء يوم، شعرت برغبة زوجها في معاشرتها، وكان هذا الأمر قليلا في السابق، وأصبح نادر الحدوث في الفترة الأخيرة، ولم تكن هي راغبة في هذا الأمر نظرا لمشاعرها السلبية تجاهه، ولأنها بدأت تشعر أنه يقوم به كتأدية واجب أكثر منه مدفوعا برغبة فيها، ولكنها لم تعترض حتى لا تشعره بأن في الأمر شيئا، وأثناء الممارسة أخطأ في ذكر اسمها وناداها باسم الأخرى، عندها جن جنون الزوجة وثارت ثورة عارمة، وصارحته بشكوكها التي هي بالنسبة لها في حكم اليقين، وانخرطت في بكاء عنيف، عندها حاول الزوج أن يهدئ من روعها وأن ينفي كل شكوكها، وكانت هذه أول مرة يكذب فيها عليها منذ زمن، ولكن دون فائدة .....

بعدها بدأت الأمور تتطور بينهما بشكل متسارع، فها هي الزوجة تلح عليه في الاعتراف بعلاقته مع الأخرى، وبدأ هو يشعر أن ما كان يخشاه ويتجنب التفكير فيه قد حدث، وأصبح لزاما عليه المواجهة وحسم الأمور، فالتجاهل وتكرار الكذب أصبحا غير ذي نفع، بل يزيدان الأمور تعقيدا، فاستجمع شجاعته ذات يوم بعد مشادة بينهما وإذا به يعترف لها بكل شيء، ويخبرها أنه قرر الزواج منها، عندها زلت الأرض تحت قدميها، وخارت قواها، وخمدت نيران القلق المتأججة بداخلها وحل محلها سكون اليأس والإحباط، وكان رد فعلها التلقائي أنها قالت له في تصميم وهدوء: إذن عليك الاختيار بيننا....

وبدأت حيرة الرجل، إنه لا يستطيع أن يحيا بدونها، ليس لكونها زوجته وأما لأولاده فقط، إنها تمثل له قيمة ورمزا وتاريخا، فهي جزء أساسي في حياته اليومية، مجرد توديعها له في الصباح، ولقائهما على الغداء مع الأبناء، وإلقائها له تحية المساء قبل النوم، قد لا يدور بينهما حوار ولكن يكفي إحساسه أنها بجانبه، يكفي وجودها المجرد الذي اعتاد عليه حتى يشعر بالمساندة والمشاركة والدافع للاستمرار، وإضفاء بعد آخر ومعنى للحياة، كما إنه استنفد عمره كله في بناء أسرة متماسكة، وفر لها كل إمكانياته وبث فيها كل آماله وطموحه، والزوجة هي الرمز لكل هذا، وانفصاله عنها هو شبه انفصال عن أسرته التي هي معنى الحياة بالنسبة له، إذن هو لا يستطيع الانفصال عنها. في المقابل هو أيضا أضعف كثيرا من أن يواجه عجزه أمام محبوبته الجديدة، فهي نبض آخر متجدد للحياة، فيها من الجاذبية والمتعة والإثارة ما يعجز قلبه وعقله وتفكيره عن مقاومة تأثيرها، ويؤكد انصياعه لها بدون قيد أو شرط، وفي محاولة لتهدئة الصراع بداخله، استعان بحكم الدين في هذا الأمر ليعينه على اتخاذ القرار، أو بمعنى أصح، لتبرير ما عزم على القيام به، فما دام أجل الله للرجل أربع زوجات، إذن هو على صواب، أو على الأقل ليس على خطأ، والله أعلم بالعباد. وحسم أمره بالاستمرار في إجراءات الزواج، ومحاولة استيعاب غضب الزوجة والأولاد بقدر ما يستطيع، ومهادنتهم مع فرض الأمر الواقع عليهم، وبدأت حالة الزوجة تزداد سوءا وأصبح الحزن والانعزال سمة لحياتها، لا تنام إلا بالمهدئات، وتعمقت داخلها كراهية شديدة لزوجها، وتصميم على طلب الطلاق، وإن كان هناك تخوف من تحقيقه، فعزة نفسها وكبريائها ترفضان أن تصبح شيئا ثانويا في حياة رجل هو كل حياتها، وكانت هي كل حياته، ولكنها أيضا تخشى حتى النخاع ذاك الفراغ المميت الذي قد يقودها إليه هذا الطلاق، وهكذا استمر الحال، فهو لم يقو على الانفصال، كما لم تلح هي كثيرا في طلبه، فقد كانت مشوشة، مترددة في الاختيار بين أمرين أفضلهما أسوأ من الآخر.

●●●

هكذا نرى أنه حتى في وجود الحب والاستقرار بين الزوجين، من الممكن أن يأتي طرف ثالث، فرضته ظروف ما أو ألقاه في طريقهما حظهما التعس، يزعزع استقرارهما، ويضعهما في أصعب اختبار، وأقسى بدائل الاختيار. فالحياة مزيج من مجالات متعددة، عاطفة، عقل، عمل، ثقافة، علاقات أسرية، ترفيه، وعلاقات اجتماعية. والحكيم هو الذي يعادل ويوازن بين مجالات حياته المختلفة، أحيانا يسيطر على وعينا مجال واحد لفترة ما، كالعاطفة مثلا، ومن طبيعة الكثير من الناس أنهم يعيشون اللحظة بعمقها، وكأن تلك اللحظة هي الحياة كلها، دون امتداد سابق أو لاحق لها، ولهذا فهم يلجأون إلى تجاهل المجالات الأخرى أثناء تلك اللحظات، وقد يتخذونه موقفا ما، أو يأخذون قرارا مصيريا، ولكن لا تلبث أن تسكن العاصفة، وتبدأ الاحتياجات الأخرى في العودة إلى السطح وتفرض نفسها عليه، بعد أن يكون قد اتخذ قرارا من الصعب العودة فيه، وبهذا يكون قد أرضى مجالا واحدا بصفة مؤقتة على حساب مجالات أخرى كثيرة تفوق بمراحل ذلك المجال أهمية على المدى البعيد، كمن يشتري الرث بالثمين وهو لا يدري، أو يدري ولا يقوى على مواجهة ضعف نفسه، ولكنه إن آجلا أو عاجلا سيدرك حجم ما فقده، ويعي بمرارة كم كانت صفقته خاسرة.

● لذلك فالحجم الأكبر من العلاج في تلك الحالات يقع على عاتق الطرف المصاب بالحب، فهو في حاجة إلى الكثير من الإرادة والحكمة وبعد النظر ليستطيع أن يتخذ القرار السليم في الوقت المناسب، وأن يقوى على تنفيذه، وأن يستشف الخطر عن بعد، فلا يقترب منه ويمنع نفسه عن التمادي فيه، فالوقاية في مثل تلك الحالات أسهل كثيرا من العلاج، لذلك يجب أن يستنفر كل طاقاته حتى لا يقع في هذا الشرك، لأن الخاسر هنا ليس الطرف الآخر وحده، بل في النهاية الجميع خاسرون .....

● وينبغي التنويه هنا، أن هناك بعض المجتمعات التي يكون فيها الزواج بأخرى أمرا مقبولا اجتماعيا، أو يبدو كأنه عرف متبع، في هذه الحالة تكون انعكاسات الزواج الثاني والانفعالات المصاحبة له أقل كثيرا مما ذكر في المثال السابق، ولكن تظل مشاعر الزوجة الأولى مزيجا عميقا من الألم والأسى والإحباط، ولأنها لا تستطيع أن تتحدى تقاليد مجتمع بأكمله، فهي لا تملك إلا الاستسلام ومحاولة التكيف مع الوضع الجديد.

د. طارق درويش
استشاري الطب النفسي